

إحياء علوم الدين للإمام الغزالي

مع مقدمة في التصوف الإسلامي ودراسة تحليلية لشخصية الغزالي

وفلسفته في الإحياء

بمقال

الدكتور بدوي طبانة

الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم
بجامعة القاهرة

الجزء الأول

مكتبة وطبعة "كرياطة فوترا" سماراغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الغزالي وأخيه، علوم الدين

تمهيد في التصوف الإسلامي :

- ١ -

جاء الإسلام على فترة من الديانات ، وبث محمد صلوات الله وسلامه عليه على فترة من الرسل ، ليميد لعقيدة التوحيد صفاءها وقاءها ، ويطهرها من أدران الشرك والوثنية ، وليعدل زيف البشرية في عقائدها وعباداتها ومعاملاتها ؛ وليرسى القواعد الأساسية التي تقوم عليها صلة الإنسان بربه ، وتنهض بها علاقته بأخيه الإنسان ؛ وليرسم للناس مقاييس السلوك ، ويتم مكارم الأخلاق ؛ ويضع بكل ذلك دستوراً للمجتمع قوى سليم ، تصان فيه حقوق الإنسان وحرياته ، وتحدد فيه أعباؤه وتكاليفه في المجتمع الذي يبش فيه .

وكان في تعاليم الإسلام ونصوص القرآن أكبر باعث على تنمية الضمير الإنساني .

قد جعلته تلك التعاليم بمنطق أن عليه رقيقاً حسياً : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » ، وهو بسبب الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه ، وهو الذي : « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » . وبذلك يعلم أنه لو خُلِّيَ بينه وبين المصيبة لما اقترفها ، لأنه يرى بضميره ذلك الرقيب في السر ، كما يرى آياته ماثلة شاخصة ، ويراه في جنح الظلام ، كما يرى الذين يخشام في رائحة النهار وأنها : « إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » .

وخلاصة مبادئ الإسلام مبدآن : عملٌ للدنيا وعملٌ للآخرة . يتلخصان في قوله تعالى : « وَأَتَّبِعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ » . وقول الرسول : « أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

ومقتضى العمل للدنيا أن يكون الإنسان فرداً فعلاً يؤثر فيما حوله ، ويتأثر بما حوله . وليس للحق مناص من خوض معترك الحياة ، يضطرب فيما يضطرب فيه الناس ، ساعياً في رزقه ، أو طالباً للمجد وكرامة ، وتلك سنة الحياة وطبيعة الأحياء ، ولن نجد لسنة الله تبديلاً مادامت السموات والأرض .

وإذا وجدت فكرة التبتل والانتقاع شيئاً من الدعوة إليها ، فإن في النصوص الصريحة من الكتاب والسنة ما يؤيد فكرة العمل وما يبحث عليها وبطلب بها في إصرار وتوكيد ، حتى لتصبح فكرة التبتل والانتقاع وسيلة لكبح جماح النفس ، والمبالغة في طلب الحياة والمهرص عليها ، واستسلام النفس للذوات وحب الشهوات .

وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أصدق شاهد على ذلك ؛ وهو القدوة لكل مسلم ، وأقرب الخلق إلى الله سبحانه وتعالى ؛
ومنتهى القول فيه أنه إنسان كامل : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِمِيعَادِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

وآثاره صلى الله عليه وسلم في العمل والسكسب كثيرة ، منها قوله : « من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد في سبيل الله ، ومن طلب الدنيا حلالا في عفاف كان في درجة الشهداء » . وروى عائشة رضی الله عنها أن النبي صنع شيئا ترخص فيه ، وتبزه عنه قوم ، فبلغه ذلك . فحمد الله ، ثم قال : ما بال أقوام يتزهون عن الشيء أصنعه ؟ فوالله إني أعلمهم بالله ، وأشدهم له خشية !

هذا العمل نفسه ، وإن كان للدنيا ، وإن كان للفرد يتحرى به خيره أو خير غيره ، عمل للآخرة إذا ما اتبع فيه الحق ، وأنصف نفسه من غيره ، وأنصف الناس منه ، وابتنى بذلك الإنصاف وجه الله والدار الآخرة ، وراعى أصول العقائد والعبادات التي تكون بين العبد وربه ، لا تتجاوز تلك الدائرة إلا قليلا .

وهكذا كان القصد والاعتدال من سنن الإسلام ، الذي يحقت النلو أشد التقت . فالإسراف في النفقة رذيلة ، والسرقة من إخوان الشياطين ؛ مع أن بذل المال مطلوب ، وكنزه يوجب العقاب : « وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالنِّصَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ » . ولكن الذي يضيع ماله على خلاف مقتضى العقل والشرع ، ولو في الخير كبناء المساجد ؛ سفیه يبني الحجر عليه ومنه من التصرف في ماله .

والذي يفت نفسه في ضروب العبادات ويبالغ فيها مسرفاً ، كالمثبت الذي لا يقطع أرضاً ، ولا يبقى ظهراً . ومثله سواء بسواء المقبل على الدنيا ، الماكف على لذتها ، التهاك على عرضها الزائل ، الذي شغل بها عما عند الله ، وفقل عن حق ربه ، وحق دينه ، وحق غيره فيما عنده .

كذلك كان الإسلام ، وكذلك كانت سماحة الإسلام : فرض على المسلم صلاةً وزكاةً وصوماً وحجاً ؛ وكتب عليه جهاداً لا يقوى عليه إلا بحسن التدبير الذي يستلزم صحة الأبدان وصحة العقول ، وإعداد المال والرجال ، من غير ظنيان حق على حق ، أو إتيان العاجلة على الآجلة .

وسار المسلمون هذه السيرة في الصدر الأول ؛ حتى آل الأمر إلى ملك عضوض ، أصبحت فيه السياسة فناً لا يتخرج فيه عن الوسيلة في التماس التلبية ، وطفنت المادية على رجال الحكم ، وقدم في ذلك رعاياهم ، فأقبلوا على الدنيا وعكفوا على ضروب الخداع والبهو ، واتخذوا الجوارى والقيان ، وسكنوا القصور ، وعمروا الأرض ، واصطنعوا الملاذ التي كان يرفع عنها المسلمون في الصدر الأول ، وحاموا حول الشبهات ، واستهقروا بها ، وتأولوا في استباحتها آى القرآن وسنة النبي .

وقد كان خلفاء بني أمية سياستان اقتضاهما الحفاظ على الملك في يديهم بتوارثه أبنائهم وخلفائهم ، فهم يتبعون سياسة القمع ويعملون السيف والصف مع الخارجين عليهم من أهل العراق الذين كانوا شعبة لعلى وأهل بيته ؛ وهم يتلونهم بالجناة الفلاظ من الولاة والعمال ؛ على حين يصانعون أشرف الحجاز الذين كانت قلوب الساخطين الناقمين على سياسة بني أمية تتطلع إليهم ، فترى الخلفاء يلينون لهم في القول ويتجاوزون عن مسيئهم ، ويشجعون حياة النهو والترف فيهم بما يندقون عليهم من العطاء ، ليشتظروهم من التطلع إلى الخلافة وإلى مناصب الدولة .

أما ذوو الجاه الذين مدّ لهم السلطان في الأسباب فظلوا سادرين في لهوم وترهم . على حين ينس الآخرون من عامة أهل الحجاز وسواد أهل العراق من كل سبب من أسباب الدنيا .

وكان هذا اليأس من المنصب والحرمات من البر والفرار من الفتنة التي حدثت في صفوف المسلمين ، مدعاة لكفهم على العبادة والزهادة ؛ فانطووا على أنفسهم ، يتذاكرون كتاب الله وسنة نبيه ، ويشغلون أنفسهم بقصص الوعظ والزهد ، والتصبر بما وعد الله الصابرين من الأجر وجزيل الثواب .

فاد هؤلاء إلى نصوص القرآن والسنة النبوية يستخلصون منها نصوص الترغيب فيما عند الله وابتغاء ثواب الآجلة ليصلوه منهجهم في الدار الآتية ؛ وراوا الزهد والانصراف إلى العبادة مرقاة الصعود إلى الله وكسب رضاه ، والوصول إلى المعرفة الكاملة بملكوت الله ، وهم يوقنون أن أسرار الملكوت محجوبة عن القلوب التي دنسها حب الدنيا التي استغرق أكثرهما طلب الحاجة ؛ بما فيها من رغد وزينة وجاه وسلطان: « زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْأَنْخِيلِ الْمَسْوُومَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ النَّبَاتِ » .

والأصل هو معرفة الله تعالى ، ثم سلوك الطريق إليه ، فأما أمر الآخرة فيكفي فيه الإيمان المطلق ، فإن للعارف الطبع معاداً مسعداً ، وللجاهد العاصي معاداً مشقياً ، فأما معرفة تفصيل ذلك فليس بشرط في السلوك ، لكنه زيادة تكيل للتشويق والتحذير^(١) .

وذلك الأصل هو الذي أفتى فيه أولئك زهرة حياتهم ، وهو الذي أنفقوا في التعرف عليه جل ما وهبوا من عقل وتفكير ، وهو الذي ساقهم إلى التدبر في فهم آثار الصنعة ، حتى يتسنى لهم الوصول بها إلى المعرفة الحقة بالصانع ، وتلك المعرفة غاية في ذاتها ، إذ بها يصبح العبد ربانياً ، وفي ذلك تلك الغاية السعادة الحقة ، وكل ما يصطنعه العبد من عمل ومجاهدة إنما هو للوصول إلى تلك الغاية ، غاية المعرفة .

ولا تكون تلك الغاية لمن نظر إلى غير الخالق ، لأن النظر إلى غيره عمى عنه ، وغفلة عن طريقه ، ولا يجمل بالمرريد أن يتذلل للعبيد ، كيف وهو يجد عند الله كل ما يريد^(٢) ، وإذا انقطع العبد إلى الله تعالى بالكلية فأول ما يفيد الاستغناء به عن الناس .

(١) النزالي : جواهر التركان ١٢ (طبعة الرحاية - القاهرة ١٣٥٢ هـ)

(٢) راجع فوات الوفيات لابن شاكر ٣/١ (مطبعة بولاق - القاهرة ١٢٩٩ هـ) .

والطريق إلى الله يستلزم أمرين : الملازمة والمخالفة . وللملازمة ملازمة ذكر الله تعالى ، والمخالفة لما يشغل عن الله ، وهذا هو السفر إلى الله . وليس في هذا السفر حركة لا من جانب المسافر ولا من جانب المسافر إليه ، فإنهما معاً . أو ما سمعت قوله تعالى ، وهو أصدق القائلين : « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » ١٢ .

بل مثل الطالب والمطلوب . مثل صورة حاضرة مع مرآة ، ولكن ليست تتجلى في المرآة لصدا في وجه المرآة ، فتق صفتها تجلت فيها الصورة ، لا بإرتحال الصورة إلى المرآة ، ولا بحركة المرآة إلى الصورة ، ولكن يزوال الحجاب ، فإن الله تعالى متجلى بذاته لا يخفى ، إذ يستحيل اختفاء النور ، بل بالنور يظهر كل خفاء ، والله نور السموات والأرض .

وإنما خفاء النور عن الحديقة لأحد أمرين : إما لكدورة في الحديقة ، وإما لضعف فيها ، إذ لا تطيق احتمال النور العظيم الباهر ، كما لا يطيق نور الشمس أبصار الخفافيش والتور يتجلى في بعض المرايا أصح وأظهر وأقوم وأوضح ؛ وفي بعضها أخفى وأميل إلى الاعوجاج عن الاستقامة ، وذلك بحسب صفاء المرآة وصقلتها وصحة استدارتها ، واستقامة بسط وجهها ، فلذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة (١) » .

ومن هذا الدليل المادى كان الاتجاه المملى إلى جلاء النفس وصقلها ، وسبيل ذلك مجاهدة النفس وإحكام مخالفتها بالانصراف عن الدنيا ، والمكوف على العبادة ، وترويضها بطول الخلوة والسياسة والصوم وقلة الطعام في الفطر وكثرة الذكر ، وغير ذلك من وسائل حمل النفس على غير ما تشهى .

ويبدو من هذا أن السلبية كانت الطابع العام ، ومحاربة النفس كانت الأصل عند أولئك الزاهدين في الدنيا وزينتها .

وكانت بعد ذلك حركات عقلية اقتضت أودية التفكير الإسلامى ، ونهبت المسلمين إلى ألوان من المعرفة لم يكن لهم من أكثرها حظ ؛ وضروب من التفكير لم يسبق لهم مزاولتها ، والأمة الإسلامية تتطلع إلى احتلال منزلتها ؛ وبناء مدينتها على تلك الأسس الوطيدة التي أرسى دعائمها الإسلام ، وهو دين البشرية الذى بث صاحبه إلى الأسود والأحمر : « لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ » وهو رسول الله وخاتم النبيين .

ولذلك كان على حماة هذا الدين والقوامين عليه أن يطلو قوا بكل جهات المعرفة ، ويقفوا على ما عند غيرهم من أبناء الأمم من ضروب المعرفة وألوان التفكير ، حتى لا تخفى عليهم زاوية من زوايا العقل ، ولذلك لم يقفوا عند حدود النصوص ليؤمنوا بها إيماناً مطلقاً ، ولم يهودوا يكتفون بالإيمان المجرد . بل أحسوا بضرورة البحث في أسس هذا الإيمان وضرورة تطبيقه على العقل . وقد وجدوا في نصوص الدين ما يبحث على ذلك النظر وما يشجع على إعمال العقل والتفكير

وكانت هنالك أم سبقتهم إلى البحث والتفكير في الكون وخالقه ، والحياة وما وراها ، والإنسان في

حياته وموتوبته . وكان تلك الأم تراث خلفه طواؤها، وورثته حكاؤها الإنسانية لتتظرفه ، وتفحص منه أو تزيد عليه . ما وسعها الزيادة وما وسعها التهذيب والتصحيح .

وجدت المسلمون في جمع ذلك التراث ونقله إلى لسانهم العربي ، حتى إذا اجتمع لهم منه شيء كثير ، أخذوا في تفهيم ومدارسته ، وجدوا في تحميمه وتطبيقه على ما ورثوه من دين ومعرفة وحقيدة وعبادة ومعلمة وسلوك .

وقد بلغ هذا التيار مداه في القرنين الثالث والرابع المجرىين . ففي هذين القرنين كانت أودية العلم تفرج بتلك التيارات الفكرية الطارئة التي حدثها كثير من المسلمين ، وعظم بذلك سلطان النقل ، وطمى الجدل بين العلماء طغياناً كاد يُنسى كثيرا منهم الأصل الذي ورثوه عن إسلامهم وهرابهم .

فالحكمة الهندية وفلسفة فارس وفلسفة يونان ومنطقهم ، كل ذلك أصبح يجري على ألسنة العلماء ولتلك من المسلمين ويشغل بهم ، ويدعوم إلى البحث في دينهم وأصول عقائدهم على ضوء هذه المعرفة التي جذت على بيتهم ووجد فيهم من يتمصّب لتلك الثقافات الطارئة ، ومن يؤثرها على ثقافته الأصيلة ، إلى جانب الذين وصلوا هذه جلك ، وكوتوا من هذا المزاج زادا جديداً للعقل العربي الإسلامي .

وعاد الأمر إلى أولئك الزهاد الذين صدقوا عن الدنيا وزينتها ، ولم تمد السلبية التي كانوا يؤثرونها قبل منهم في هذا المجمع المضطرب ، فقد أصبح الفكر دعامة كل منهج من مناهج الحياة ، سواء أكان ذلك المنهج منهجاً نظرياً ، أم منهجاً عملياً . وقتلك وجدوا أنفسهم في حاجة إلى فلسفة فكرتهم في الحياة حتى تنهض على أسس تماثل تلك الأسس التي أقام عليها غورم سلوكهم في الحياة .

الإمام الغزالي

وقد أنجب القرن الخامس المجرى طمأ من أعلام الفكر الإسلامي ، هو حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد ابن محمد الغزالي ، ويحمل بنا أن نشير إلى شيء من تاريخ هذا الإمام ، لتقف من هذا التاريخ على العوامل التي تظلمت على تكوين هذه العقيدة القريفة ، وألوان الثقافة التي احتشدت في ذهنه ، وجسده أهلاً لأن يحتل تلك منزلة الجليلة بين زهاد المسلمين ومتصوفهم وأبناء مفكرهم .

وفي مدينة طوس^(١) وفي منتصف القرن الخامس المجرى (٤٥٠ هـ) ولد أبو حامد من أب عرف القلب واليد ، ينزل الصوف ويبيعه ، ويختلف في أوقات فراغه إلى العلماء في حلقاتهم . والتقهاء في دروسهم ، والوعاظ في مجالسهم ، يستمع إليهم ، ويتطلع إلى صنيعهم في التعليم والإفادة ، ويلاطفهم بما يعرض من قوته وحاجته . وكان

(١) طوس : مدينة بخراسان . بينها وبين نيسابور مسيرة فراسخ ، فصحا للمسلمون في أيام منان بن مغان ، وبها قبر علي بن موسى الرضا ، وقبر هارون الرشيد ، وبها آثار إسلامية جليلة .
قال ياقوت : خرج من طوس من أئمة أهل السلم والفتنة مالا يحصر ، وحسبك بأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي وأبي القاسم أخيه .. (معجم البلدان ٦/٢١١)

تأثره بتلك المجالس وما يدور فيها من فنون العلم والوعظ عظيمًا ، جعله يضرع إلى الله أن يهب له ولها من صلبه مجلس مجالس أولئك الفقهاء والوعاظ الذين يملون الناس أمور دينهم ، ويبصرونهم بخير الحياة الدنيا والآخرة .
واستجاب الله لدعائه فرزقه ولدين : أحدهما أبو حامد الذي تحدث عنه ، والآخر أخوه أحمد الذي اشتغل بالوعظ وبرع فيه إلى درجة كبيرة (١) .

ولما حضرت الوفاة ذلك الأب الصالح وصى بأبي حامد وأخيه صديقًا له من أهل التصوف . وقال له : إن لي لأنتما عظيمًا على ما قاتني من التعلم ، وأشتهى استدراك ما قاتني في ولسي هذين ، فلهما ، ولا عليك أن يتفقد في سبيل ذلك جميع ما أخلفه لهما .

وأخذ الصوفى وصيته ، وأقبل على تلميحهما ، حتى فنى المال القليل الذي خلقه أبوهما ، وتمذر عليه المضى في تلميحهما أو تقديم الطعام الذي يقتاتان به . ولم يجد من السبل ما يحفظ به عليهما حياتهما إلا أن يلحقهما بمدرسة من تلك المدارس التي تقدم لطلاب العلم فيها الغذاء والكساء . وقد أحسن الرجل بذلك صنمًا إلى هذين التيسين اللذين لا عائل لهما ولا مال بينهما على الحياة ، ولذلك كان النزالي يقول وهو يذكر هذا الصنيع : « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا الله » . ومعنى ذلك أنهما طلباه ليكون وسيلة للعيش ، يُجرى عليهما بسببه ما يُجرى على طلبة العلم ، فكان أن أوصلهما إلى الناية الحقيقية من طلب العلم ، وهي معرفة الله تعالى حق المعرفة .

هذا أبو حامد يقرأ في صباه طرفًا من الفقه يبده (طوس) ثم يسافر إلى (جرجان) (٢) ويأخذ عن أبي نصر الإسماعيلي ، ثم يرجع إلى طوس ، فيقيم بها إلى ما شاء الله حتى يرتمل إلى (نيسابور) (٣) فيلزم إمام الحرمين أبا المعالي الجويني ، ويبحث في طلب الفقه ، فيبرع فيه وفي الجدل والمنطق والفلسفة ويفقه كلام أهل تلك العلوم ، ويتصدى لرد عليهم ، وإبطال دعاوهم ، ثم يقصد (المسكر) بعد وفاة إمام الحرمين ، ويلقى فيها الوزير نظام الملك ، ويتناظر في مجلسه الأئمة والعلماء ، ويقهر مناظريه ، حتى يعترف الجميع له بالفضل ، ويأمره نظام الملك بالتوجه إلى (بغداد) والتدريس في المدرسة النظامية ، فيقدمها سنة ٤٨٤ هـ وفي تلك المدرسة يعظم مجده ، ويتألق نجمه ، ويذيع صيته ،

(١) هو أبو الفتح أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي النزالي للقب مجد الدين . قال ابن خلكان : كان واعظًا مليح الوعظ ، صاحب كرامات وإشارات ، وكان من الفقهاء غير أنه مال إلى الوعظ ، فقلب عليه ، ودرس بالمدرسة النظامية نيابة عن أخيه أبي حامد وترك التدريس زهادة فيه ، واختصر كتاب أخيه أبي حامد للمسمى بإحياء علوم الدين في مجلد واحد ، وسماه (باب الإحياء) وله تصنيف آخر سماه (التخيير في علم البصيرة) وطاف البلاد وخدم الصوفية بنفسه ، وكان مائلًا إلى الاعتقاد والزهدة . وتوفى أحمد بزوزنق سنة صفر من وخسائة [انظر وفيات الأعيان ١ / ٢٠٧ - مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة ١٣٥٥ هـ]

(٢) جرجان : مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان ، بعض أهلها من هذه وبعضهم من هذه . قيل إن أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبي سفرة ، وقد خرج منها سفوة من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين ، ولها تاريخ أنه حزة بن يزيد السهمي . قال الإسطخري : أما جرجان فإنها أكبر مدينة بتواحيها ، وهي أقل ندى ومطرًا من طبرستان ، وأهلها أحسن وقارًا وأكثر مروءة من كبارهم . ولجرجان مياه كثيرة وضياء عريضة . وليس بالشرق بلد أن تجاوز العراق مدينة أجمع ولا أظهر حنا من جرجان (راجع معجم البلدان ٣ / ٧٥ طبعة المادة ١٩٠٦ م)

(٣) نيسابور : بلد كثير القواكه والميراث ، كان المسلمون قد فتحوها في أيام مهدي بن عثمان رضي الله عنه ، والأمير عبد الله بن طاهر ابن كرز في سنة ٣١ سلما ، وقيل إنها تحت في أيام عمر رضي الله عنه على يد الأخنف بن قيس ، وإنما اختصت في أيام مهدي ، فأرسل إليها عبد الله بن طاهر ففتحها ثانية .

حتى يقال إن مجلس النزالي كان يحضره ثلثمائة حمالة من أكابر العلماء . وأصبح مضرب النثل في التدريس والإفادة ؛ تشد إليه رحال طالب العلم وأهل الورع . ولكن نفسه تصد عن المنصب والجاه ، ويرى أن العلم مع شرفه ، والتعليم القوي يقوم به ، غير خالصين لوجه الله تعالى ، بل باعها ومحركها طلب الجاه وبمد الصيت . فتبين أنه على شفا جرف هار ، وأنه قد أشقى على الهلاك إن لم يسرع بتلافى ما هو فيه .

وحيث يظهر عزمه على الخروج إلى مكة ، وهو يدير في نفسه السفر إلى الشام ، ولكنه لا يصرح بنيه حذراً أن يطلع الخليفة ووجه الأصحاب على عزمه المقام بالشام ، فيتلفط بلطائف الحيل في الخروج من بندا د وهو ينوي ألا يباودها أبداً ؛ واستهدف بذلك لأئمة أهل العراق ، إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الإعراض عما كان فيه سيكاً دينياً ، فقد ظنوا أنه بلغ المنصب الأعلى في الدين ، وكان ذلك مبلغهم من العلم .

وقد ارتبك الناس في الاستنباطات ، وظن من بعد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاية ، وإما من قرب من الولاية ، وكان يشاهد إلماحهم في التعلق به والانكباب عليه وإعراضه عنهم ، وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون : هذا أمر سماوي ، وليس له سبب ، إلا عين أصابت الإسلام وزمرة أهل العلم ا

وقارق بندا د ، بعد أن فرق ما كان معه من المال ، ولم يدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال ، ترخصاً بأن مال العراق مُرصدٌ للمصالح لكونه وفقاً على المسلمين ، فلم يرف العالم مالا يأخذ العالم ليماله أصلح منه . ودخل الشام ، وأقام به ما يقرب من سنتين لا شغل له إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة ، اشتغالا بتركية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، فكان يتكف في مسجد دمشق ، يصعد منارته طول النهار وينلق بابها على نفسه ، حتى رحل إلى بيت المقدس ، يدخل كل يوم الصخرة ، وينلق بابها على نفسه .

ثم تحركت فيه داعية الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه ، فسار إلى الحجاز ؛ حتى جذبته المهم ودعوات الأطفال إلى الوطن فعاوده بعد أن كان أبعد الخلق عن نية الرجوع إليه .

وفي تلك الرحلات صدقت نفسه عن الدنيا ، ولبس الخشن من الثياب ، وقلل طعامه وشرابه ، وصار يطوف المشاهد ويوزر المقابر والمساجد للمظة والاعتبار ، ويروض نفسه ويجاهدها جهاد الأبرار ، ويكلفها مشاق العبادات ، ويملؤها بأنواع القرب والطاعات ، وفي هذه الأثناء ألف هذا الكتاب (إحياء علوم الدين) حتى رجع إلى بندا د فحدث به .

عاد النزالي بعد ذلك إلى خراسان ، وانقطع للعبادة ، وآثر العزلة حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر ، حتى طلب إليه فجر الملك بن نظام الملك أن يقوم بالتدريس بالمدسة النظامية في نيسابور ، ولكن النزالي تأبى وقال : أريد العبادة ا فقال له : لا يحمل لك أن تمنع المسلمين الفائدة منك ا فدرس مدة بسيرة .

يقول النزالي في ذلك : ترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة ، تمللاً بالمعجز عن إظهار الحق

بالحجة ، فقدّر الله تعالى أن حرك داهية سلطان الوقت من نفسه ، لا بهريك من خارج ، فلم أمر بالإزام بالتهوض إلى « نيسابور » لتدارك هذه الفترة . وبلغ الإلزام حياً كان يشهى - لو أصرت على الخلاف - إلى حد الوحشة . فخطر لي أن سبب الرخصة قد ضف ، فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزّة الكسل والاستراحة . وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ، ولم ترخص نفسك بسر مطانة الخلق ، والله تعالى يقول : « أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ؟ وَقَدْ فتنّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . . . » الآية . ويقول عز وجل لرسوله ، وهو أمر خلقه : « وَقَدْ كذبت رسلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوَدُوا حَتَّىٰ أتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، وَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ المرسلين » . . . فتاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والشهادات ، فاتفقوا على الإشارة بترك العزّة ، والخروج من الزلوية ، وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة ، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد ، قدرها الله تعالى على رأس هذه اللآلة ، وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه على رأس كل مائة ، فاستحکم الرجاء ، وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات ، ويسر الله تعالى الحركة إلى (نيسابور) لقيام بهذا المهم في ذى القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة . . .

قال : وأنا أعلم أني وإن رجعت إلى نشر العلم ، فارجعت ؟ فإن الرجوع عود إلى ما كان أو كنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعمل ، وكان ذلك قصدي ونيتي . وأما الآن فلدعو إلى العلم الذي به يُترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه ، هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي ، بلم الله ذلك مني !

وأنا أبنى أن أصلح نفسي وغيري ، ولست أدري الأصل إلى مرادى أم أخترتم دون غرضي ؟ ولكني أومن بإيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وأنى لم أتحرك ، لكنه حرّكني ، وأنى لم أعمل ، لكنه استملنى ، فأسأله أن يصلحني أولاً ، ثم يصلح بي ، ويهديني ، ثم يهدي بي ^(١) .

وأخيراً يعود النزالي إلى طوس بعد اللدة التي قضاها في نيسابور ، ويتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء ، وخطابه للصوفية ، ويوزع أوقاته على وظائف من ختم القرآن ، ومجالسة الصوفية ، والتدريس لطلبة العلم ، وإدامة الصلاة والصيام وسائر العبادات ، حتى توفي في رابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٥٥ هـ .

ﷺ

ذلك ما استطاعت صفحات التاريخ أن تنيه من حياة أبي حامد الرجل في هذه الحياة الدنيا . أما عقليته ، فقد رأينا أن هذه السطور لا تكاد تصورها الصورة الكاملة ، ولن نجد في هذه الترجمة إلا لمحة من قرره وورعه وعلوه وزهده ، وقد لا يمد القارىء في هذه الصورة شيئاً غريباً ، إنها صورة طادية تمثل رجلاً نشأ قديراً ، فزهدها أو طوعاً ، ونصوف راصياً أو مضطراً .

وتلك اللامح كثيرة الوجود في البيئات الإسلامية في عصر أبي حامد وفي غيره من العصور الإسلامية .

(١) للتفد من الضلال للنزالي : ص ١٤٤ (الطبعة الثانية : القاه : ١٩٥٥ م) .

وإنك لو أجدت العلم الذي يطلبه الغنى والفقير ، والعلم العربيّ يجرى في المجالس والمدارس والمساجد ميسراً لطالبيه ، ولا يكاد يكلفهم نفقة ولا جهداً .

بل ربما كان طلب هذا العلم باباً من أبواب الرزق ، وسبباً من السبل التي يسلكها للكثيرون من طالبي الحياة لأجل القوت ، حتى يتقوا على السعى والسكد في طلبها ، أو حتى يفتح لهم هذا العلم نفسه باباً ، ويهيئ لهم بين السماء ومنزلة نهيهم لم منصباً وجاهاً ، ينالون به المحظوة والرفق عند أصحاب الملك والسيادة والسلطان ، فتدر لهم أخلاف المعطاء ، وينالون بالعلم ما يشتهون من زينة الدنيا وترفها . وهذا ما تؤكد قصة الصوفيّ مع أبي حامد ، بعد استهلاك القليل الذي خلفه أبوه له ولأخيه ؛ واضطراره لأن يدخلها مدرسة كأنهما من طلبة العلم . ويؤكد أيضاً كلمة الغزالي السابقة : « طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون إلا الله ! »

ولا شك أن كثيراً من شباب المسلمين قد سلك تلك السبل التي سلكها أبو حامد ، ولكنهم لم يمتصوا بما متع به من العقلية الصافية والذكاء الخارق والإخلاص للعلم ، والتفاني في طلب الحقيقة ، بسلوك سبيلها ، وهو سبيل شاق طويل ، لا يقوى على سلوكه إلا أولو العزم من الباحثين الصابرين ، الذين إذا التوى بهم طريق ، ووجدوه لا يوصل إلى الناية ، جددوا العزم وشحذوا قوتهم وطلبوا غيره ، ووجدوا في هذا العناء وفي تلك المصابرة والمثابرة متعة لنفوسهم وراحة لعقولهم الجادة في طلب المعرفة .

الشك عند الغزالي :

عاش الغزالي في القرن الخامس الهجري ، وهو القرن الذي فضحت فيه العقول واستوت أودية التفكير وتمددت روافده ، بين أصيل ودخيل ، وآخذ من هذا وذاك . واختلفت أساليب المعرفة ، ومناهج البحث عن الحقيقة التي ينشدها كل مفكر . وكثر المتكلمون في العقائد وفي أصول الدين ، وفي الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وفي المذاهب والديانات ، وفي أفعال العباد وغاياتهم .

وكثر المتكلمون في كل مسألة من تلك المسائل ، واختلفوا فيما بينهم اختلافاً عظيماً ، حتى ليكاد التوفيق بين تلك الآراء المتباينة ، والمذاهب المتباعدة يصبح ضرباً من المستحيل .

وتبدو الصعوبة في أعظم صورها أمام كل باحث يريد أن يختط لنفسه خطة بين هذه الخلط السكيرة والأكثرين يتخيرون لأنفسهم طريقة من الطرق السلوكية يكفون عليها ؛ ويفقهون نهجها ، ثم يناولون بها ما وسعتهم المغالاة . وربما كانت مقالاتهم دون غيرها من المقالات ، وربما كانت أدلتهم دون أدلة غيرهم ، ولكنهم في الواقع يؤثرون السلامة بالبحث في دقائق إحدى النواحي ، على حين يفعلون غيرها أو يلغون بها إلاماً عاماً ، ولم يتسع لهم الوقت للإيمان في المناهج السكيرة التي تباين منهجهم ومقالتهم .

وأمام هذا الغلو في الاعتقاد والتمصب لرأي أو منهج أو طريق سلوك ، ورفض كل ما عدا أولئك ، يجد الباحث المجدد نفسه أمام تيار من التردد ، وسيل من الشك في أي الطرق يختار لنفسه ، إن كان لا يرى التقليد في إبتل هذا المذهب على ذلك .

وجد النزالي نفسه بين هذه للذاهب التي لا تكاد تحصى ، وأمام تلك الاتجاهات التي يستحيل التوفيق بينها ، فبدأ حيث بدأ غيره يلم بأطراف من الثقافة السائدة ، ونفسه تتطلع للزيد ، وإذا المزيد الذي يريده لليقين بسلمه إلى شك طويل ، وإذا هذا الشك يبدو أمامه في كل أمر ، ولكنه لا يسرع إلى النفي ، ولا يسرع إلى اليقين ؛ فإن قلبه وعقله لا يرضيان بما رضى به غيره من الاتباع . ولذلك اضطره الشك إلى المكابدة في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ، مع تباين المسالك والطرق ، وإلى الجرأة من الارتفاع عن حضيض التقليد إلى يقاع الاستبصار .

إن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، سم اختلاف الأمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق - كما يرى النزالي - بحر غرق فيه الأكترون ، وما نجا منه إلا الأقلون . وكل فريق يزعم أنه الناجي ، و « كل حزب بما لديهم فرحون » ، وهو الذي وعد به سيد المرسلين ، صلوات الله عليه وهو الصادق الصدوق حيث قال : « ستفرق أمتي ثلاثا وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة » قد كان ما وعد أن يكون ا

ورأى النزالي أن أصحاب الأديان كان التقليد ، كما كانت الوراثة ، السبب في نشأتهم على اليهودية أو النصرانية أو الإسلام ، فصبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام . والحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ا » .

ويحكي النزالي عن نفسه في « المنتخذ من الضلال » أنه لم يزل في عنفوان شبابه ، منذ راهق البلوغ قبل العشرين إلى أن أناف سنة على الحسين ، يقتحم لجة هذا البحر العميق ، ويخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوف الجبان الخنور ، ويتوغل في كل مظلمة ، ويتهم على كل مشكلة ويتقحم كل ورطة ، ويتفحص عن عقيدة كل فرقة ، ويستكشف أسرار مذهب كل طائفة ليميز بين حيق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا ينادر باطنيا إلا أحب أن يطلع على بطائنه ، ولا ظاهريا إلا أراد أن يلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا إلا قصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلميا إلا اجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا إلا حرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبدا إلا ترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا إلا نجس وراهه للتنبه لأسباب جراته في تعطيله وزندقته .

ويقف النزالي عند قول الرسول : « كل مولود يولد على الفطرة . . . » ويتحرك باطنه إلى معرفة حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد المارضة بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات التي أوائلها تلقينات ، وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات . فيقول في نفسه : إنما مطلوب العلم بحقائق الأمور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم ، ما هي ؟ ويظهر له أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إسكان الغلط والوهم . ويعلم أن كل ما لا يلمه على هذا الوجه ، ولا يتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه . وكل علم لا أمان معه فليس يعلم يقيني ا

فهو يتطلب المعرفة الحقة ، المعرفة التي ترادف اليقين ؛ وكان يوقن في قرارة نفسه بتلك النظرية الثابتة « إن الحقيقة لاتتعدد » ولكنه يرى التمدد في الأفكار والمقالات والأديان والمذاهب ؛ إذن لا يكون الحق إلا ديناً واحداً ، ومذهباً واحداً ، ومقالة واحدة . أو بعبارة أخرى لا يكون المصدق إلا واحداً ؛ والطريق الحق إليه لا يكون إلا واحداً ؛ والتفكير المستقيم هو الذي يسلم إلى هذه الغاية .

ولكن الأديان متعددة ، والمناهج شتى ؛ تفيض بها أودية التفكير ؛ إذن فلا بد أن تكون هناك عوائق ، حالت بين العقول وبين النهج السوي ؛ لآفة أصابتها ، أو حلة اعترضتها ؛ فكان هذا التصيب للعلل والنحل ؛ والناس عبيد لما عرفوا ، وأعداء لما جهلوا .



سبل المعرفة :

قلنا إن النزالي ابتداء طريق المعرفة بالشك فيما هو حاصل لدى بعض العقول ، وفيما هو مسلم به لدى بعضها دون البعض ، وهو يبحث عن طريق الأمان ، ولا أمان إلا بالعلم اليقيني الذي لا يقبل الشك ولا التردد ، وطعمته تأتي التمدد ، فما الوسيلة إلى هذا العلم اليقيني للزم لفطرة الصافية والعقل السليم ؟

نشد النزالي هذه الوسيلة في الجليات ، وهي الحسيات والضروريات ؛ لتكون الوسيلة في فهم المشكلات ، ليتيقن أن ثقته بالمحسوسات وأمانه من الضلوع في الضروريات ، من جنس أمانه الذي كان من قبل في التقليديات ، ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات ، أم هو أمان محقق لا غدر فيه ، ولا غائلة له ؟

وأقبل يجد يبائع في تأمل المحسوسات والضروريات ، وأخذ ينظر هل يمكنه أن يشكك نفسه فيها ؟ وانتهى به طول التشكيك إلى أن لم تسح نفسه بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً ، وأخذ يتسع هذا الشك فيها ، ويقول : من أين الثقة بالمحسوسات ؟ إن أفواها حاسة البصر ، وهي تنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار ، ثم الأداة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في القدار . هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ؛ ويكذبه حاكم العقل ويخونه ؛ تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته . قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً !

لعل سبيل تلك الثقة هو العقليات التي هي من الأوليات ، كقولنا : العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً واجباً محالاً .

هنا لا نجد النزالي سبباً واقعياً واحداً ينفي به الثقة بهذه الحقائق العقلية ، التي يلتقي عندها أصحاب العقول قاطبة ، مع اختلاف أجناسهم وأديانهم ؛ ولكنه رجل شك كما أسلفنا ؛ فلا بد أن يجرى مع مذهبه في التشكيك ، ولكنه لا يستطيع أن ينفي الثقة بالعقل عن سبيل العقل ، ولا عن سبيل التجربة والحس والشاهدة ، وإذ ذاك يلتبس الشك من سبيل الجدل والفسطة ؛ ويخترع لذلك قياساً مجيباً ؛ فيزعم أن المحسوسات جادته وناقشته وحاجته قائمة : بم تأمن أن تكون ثقنتك بالمعانيات كثفتك بالمحسوسات ؟ وقد كنت واثقاً بي ، فجاء حاكم العقل فكذبني ؛ ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ، ومن وراء إدراك العقل حاكماً آخر إذا نجلى كذب العقل

في حكمه ، كما نجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه ، وعدم نجلى ذلك الإدراك لا يدل على استحالته ؟
وتتوقف للنفس في جواب ذلك قليلاً ، وتوريد إشكالها بالنام ، وتقول : أما ترك معتقد في النوم أموراً ،
وتتمثيل أحوالاً ، ومعتقد لها ثباتاً واستقراراً ، ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ ، فتعلم أنه لم يكن لجيـس
متخيـلاتك ومعتقداتك أصل وطائل ؟ فمـ تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يفتلك بحس أو عقل هو حق بالإضافة
إلى حالتك التي أنت فيها ، لكن يمكن أن تطراً عليك حالة تكون نسبتها إلى يفتلك كنسبة يفتلك إلى
منامك ، وتكون يفتلك نوماً بالإضافة إليها ، فإذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بفتلك خيالات
لا حاصل لها . ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي لم إذا غاصوا
في أنفسهم ، وغابوا عن حواسهم ، أحوالاً توافق هذه العقول ، ولعل تلك الحالة هي الموت ، إذ قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » فعمل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة ، فإذا مات
الإنسان ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك « فَكشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ
الْيَوْمَ حَدِيدٌ » .

خطرت له تلك الخواطر ، وهو في غمرة الشك والارتباب ؛ إنه يبحث عن يقين يحمله محور البحث ، وقطة
يبدأ منها سبيل الأمان ؛ ليسير نحو الغاية المنشودة بخطا ثابتة ، لا تنتقل إلا إذا اطمأنت إلى سلامة ما قبلها ، وعرفت
أنها تسير فوق أرض صلبة .

وحاول أن يخلص من هذا الظن ، وأن يقطع الشك باليقين فلم يتيسر له ، إذ لا وسيلة إلى القضاء على تلك
الشكوك إلا بالدليل ، ولم يكن نصب الدليل إلا من تركيب العلوم الأولية ، فإذا لم تكن تلك العلوم الأولية
مسئلة لم يمكن ترتيب الدليل !

إن نفي الاعتماد على الحواس في سبيل إدراك العلم اليقيني اعتماداً على بعض ما يبدو من خداعها قد يكون له
مايسوغه . ولكن هناك من طرق الكشف ما يمكن معه تصحيح تلك الأخطاء والأوهام ، وقد نبه النزالي نفسه
إلى شيء من هذا يمكن به تحقيق بعض الشبه العارضة . ولكن ما ذهب إليه من جواز تنفيد أحكام العقل لا يمد
مسوغاً إلا هذا القياس الذي رأيناه ، وفيه من الضعف ما فيه ؛ إذ أن التفكير السليم إذا خضع للمنطق واعتمد على
المقدمات الصادقة كانت أحكام العقل والنتائج التي تفضى إليها نتائج نهائية في كل زمان وفي كل مكان .

أكبر الظن أن تلك الآراء ؛ كانت رد فعل لما أحدثه الطبيعيون والفلاسفة في بيئات التفكير الإسلامي ، وهيام
بعض المقلدين بأرائهم واعتنائهم إيها ودفاعهم عنها وعن أصحابها ، مباهاة للجمهور الذي قد يجمل كثيراً من تلك
الأفكار الطارئة ، ولا يبى إلا الأفكار التي أخذها عن الإسلام وتراث العروبة ، ورأى الضائباها من تحصيل هذا
العلم الطارئ ، الذي لاصلة له بمعتقد ولا أثر له فيه ، ولا سيما أن هذا اللون من المعرفة منسوب إلى جماعة من
القدماء ؛ يعرف عنهم قبل كل شيء أنهم من أهل الوثنية . وقد صرح بهذا النزالي في التفات ، وأنه رأى طاقة
يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأرباب والنظراء بيزيد النطنة والذكاء ، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات ،

واستحروا شعائر الدين من وظائف الصلوات والتوقى عن المخطورات ، واستهانوا بعبدات الشرع وحدوده ، ولم يقفوا عند توقيفاته وقبوده ، بل خلموا بالكلية ربة الدين بفنون من الفنون ، يتبعون فيها رهطاً يصدون عن سبيل الله ويبخونها عوجاً ، وهم بالآخرة هم كافرون ؛ ولا مستند لسكفرهم غير تقليد سماعي إلفي ، كتقليد اليهود والنصارى إذ جرى على غير دين الإسلام نشؤم وأولادهم ؛ وعليه درج آباؤهم وأجدادهم ، وغير بحث نظري صادر عن التمثير بأذيال الشبه الضارفة عن صوب الصواب ، والانخداع بالخيالات المزخرفة كلامع السراب ، كما انفق لطوائف من النظائر في البحث عن العقائد والآراء من أهل البدع والأهواء .

وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسماء هائلة كسقراط^(١) وبقرات^(٢) وأفلاطون^(٣) وأرسطوطاليس^(٤) وأمثالهم ؛ وإطناف طوائف من متبجهم ، وضلالهم في وصف عقولهم وحسن أصولهم ورقة علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والإلهية ، واستبدادهم ، لفرط الذكاء واللفطنة ، باستخراج تلك الأمور الخفية ، وحكايتهم عنهم أنهم مع رزانة عقولهم وغزارة فضولهم منكرون للشرائع والنحل ، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل ، ومعتقدون أنها تواميس مؤلفة وحيل مزخرفة . فلما قرع ذلك سمعهم ، ووافق ما حكى من عقائد طبعهم ، تجملوا باعتقاد الكفر تميزاً إلى غمار الفضلاء بزعمهم ، وانخرطوا في سلكهم ، وترفوا عن مسايرة الجماهير والدهماء ، واستنكافوا من القناعة بأديان الآباء ، فلما بأن إظهار التكاسير في النزوع عن تقليد الحق بالشروع في تقليد الباطل جمال ، وغفلة منهم عن أن الانتقال إلى تقليد من تقليد خرق وخيال ، فأية رتبة في عالم الله أحسن من رتبة من يتحمل بترك الحق المعتد تقليداً بالتسارع إلى قبول الباطل نصديقاً ، دون أن يقبله خبراً وتحققاً^(٥) ؟

وقع النزالي في هذه الأشجاج من المقالات والخطاوى ، ووجد نفسه أمامها ؛ فأملت عليه تلك الآراء فيها ، وهو رجل يبرأ من الحول والطول ، ويسلم وجهه لله ، ويؤمن بأن الهدى هدى الله ؛ وكمن حسن فتن صاحبه فأرداه ؛ وكمن عقل أضل صاحبه فأغواه عن سبيل الرشاد .

فطارجت نفسه إلى الصحة والاعتدال ، رجعت الضروريات العقلية عنده مقبولة موثوقاً بها عن أمن ويقين .

(١) هو الفيلسوف المشهور ولد بأثينا سنة ٤٧٠ ق . م وكان من تلاميذ فيثاغوس ، واتصرت من الفلسفة على العلوم الإلهية وأعرض عن ملاذ الدنيا ورفضها ، وأعلن بمخالفة اليونانيين في عبادتهم الأصنام وقابل رؤساءهم بالحجج والأدلة ، فتوروا عليه العامة ، واضطروا ملكهم إلى قتله .

(٢) عن بعض علوم الفلسفة ، وهو سيد الطبيعيين في عصره ، وكان قبل الإسكندر بنحو مائة سنة ، وله في الطب تأليف مشهورة في جميع العالم ، وفي صدور كتبه وصايا جيلة من التحنن والشفقة على النوع ، وتطهير الأخلاق من الكبر والعجب والحد .

(٣) أحد أساطين الحكمة من يونان ، أخذ عن فيثاغورس وشارك سقراط في الأخذ عنه ، ولم يشتهر ذكره بين علماء اليونان إلا بعد موت سقراط ، وصنف كتباً مشهورة في فنون الحكمة ، وذهب فيها إلى الرمز والإغلاق ، واشتهر جماعة من تلاميذه المتخرجين عليه ؛ وسمى الناس فرقة المشائين لأنه كان يعلم تلاميذه الفلسفة وهو ماش .

(٤) هو تلميذ أفلاطون لازمه عشرين سنة ، وكان أفلاطون يؤثره على سائر تلاميذه وبسبب العقل ، وللى أرسطوطاليس انتهت فلسفة اليونانيين ، وهو خاتمة حكمائهم ، وهو أول من خلص صناعة البرهان من سائر الصناعات المنطقية وجعلها آلة للعلوم النظرية حتى لب بصناعة المنطق ، وله في جميع العلوم الفلسفية والأدبية كتب مشهورة ، وهو صاحب المنطق ، وكان أرسطوطاليس معلم الإسكندر ابن فيليب ملك مقدونية ، وبأدابه عمل في سياسة رعيته وسيرة ملكه ، وبسبب أرسطوطاليس كثرت الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة في البلاد الإسلامية .

(٥) النزالي : تهافت الفلاسفة : ص ٣ (المطبعة الحيدرية - القاهرة ١٣١٩ هـ) .

ولم يكن السبيل إلى ذلك نظم الأدلة وترتيب الكلام ، بل كان السبيل نوراً قذفه الله تعالى في صدره ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف .

ومن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة . ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن « الشرح » ومعناه في قوله تعالى « فن يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ بَشْرًا حَسَنًا لِمَا قَدْ جَاءَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ » قال : « هو نور يقذفه الله تعالى في القلب » اقول : وما علامته ؟ قال . « التجافي عن دار النور ، والإجابة إلى دار الخلود » وهو الذي قال عليه السلام فيه : « إن الله خلق الخلق في ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره » . فن ذلك النور ينبنى أن يطلب الكشف ، وذلك النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحيان ، ويجب التصد له ، كما قال عليه السلام « إن ربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا تضرعوا لها » .

ولم يرد النزالي بذلك كفاً نفسه ، أو كفاً الناس ، عن الدرس والتأمل والبحث ، اعتماداً على هذا النور الذي لا يأتي إلا نفحات ، وفي بعض الأحيان ، ولكنه أراد أن يصل كمال الجهد في الطلب حتى ينتهي إلى طلب ما لا يطلب ، وما لا قدرة على إدراكه ، وهو الذي يحتاج إلى ذلك النور الذي يقذفه الله تعالى في قلوب المصطفين الأخيار من عباده .

❦

وإذا كان النزالي معدوداً في أئمة فلاسفة الإسلام ؛ فإن ذلك حق ، إذا أريد به أنه صاحب رأى وصاحب فكرة حرة ، لا تسير في ركاب فكر أخرى ، مهما يكن حظها من الذبوع ؛ وحظ أصحابها من المجد في دنيا التفكير .

وإذا كان النزالي معدوداً في رأس المتصوفة التقية الزاهدة الورعة ، فإن ذلك حق أيضاً ، ولكن ينبغي أن يكون معروفاً أنها ليست صوفية البتة من العوام ، ولكنها صوفية الخاصة ، صوفية مستتيرة جادة مجاهدة في طلب المعرفة ، وسبيل الوصول عندها إلى الحقيقة ذلك الجهد الذي يقتحم كل واد من أودية المعرفة : المعرفة التي يرضاها ؛ والمعرفة التي ينكرها ، والمعرفة التي قد يسلم بها ولكنه لا يأخذ بها .

وهي صوفية تقف في وجه الابتداع ، وتقف أيضاً في وجه التقليد ، صوفية تفند من أهل الهواة من أهل العقل ، وهي في الوقت نفسه تحترم أحكام العقل التي لا تقبل المنازعة ؛ حتى لو عدها بعض الجامدين خروجاً على الدين ومخالفة لنصوص سادت في بيئاتهم ؛ إنه يؤول تلك النصوص تأويلاً يجاري به أحكام العقل وأحكام الطبيعة ؛ ويظن في صحة النص إذا عارض أحكام العقل المسلم بها وأحكام الطبيعة الراهنة الشاخصة ، ويذهب إلى أن الإصرار على تقبل تلك النصوص على ما فيها مضر بالإسلام ومشكك في صحة العقيدة .

انظر إليه وهو يحصى أقسام الخلاف بين الفلاسفة وبين غيرهم من الفرق ، ويذكر قسماً من هذا الخلاف ، لا يصدم مذهب الفلاسفة فيه أصلاً من أصول الدين ، وليس من ضرورة تصديق الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم منازعتهم فيه ، كقولهم : إن كسوف القمر عبارة عن انمحاض ضوء القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس ، من حيث إنه يقتبس نوره من الشمس ، والأرض كرة والسماء محيطة بها من الجوانب ، فإذا وقع القمر في ظل الأرض

انقطع عنه نور الشمس . وكقولهم : إن كسوف الشمس معناه وقوع جرم القمر بين الناظر وبين الشمس ، وذلك عند اجتماعهما في المقتدين على دقيقة واحدة .

إن هذا الفن لا يحاول النزالي أن يخوض في إبطاله ، إذ لا يتعلق به غرض من الدين ، وبصرح بأن من يظن أن للناظرة في هذا من الدين ، قد جنى على الدين وضمف أمره ، لأن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية حسائية لا يبقى معاربية ، ومن اطلع عليها وتحقق أدلتها ، حتى يحبر بسببها عن وقت الكسوفين وقدرها ومدة بقائها إلى الانجلاء ، إذا قيل له : إن هذا على خلاف الشرع لم يسترب فيه ، وإنما يستريب في الشرع . وضرر الشرع عن ينصره لا بطريقه ، أكثر من ضرره ممن يظن فيه بطريقه ، وهو كما قيل : عدو عاقل خير من صديق جاهل ! .

فإن قيل : قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشمس والقمر لآيتان من آيات الله ، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة » فكيف يلائم هذا ما قاله ؟ يقول النزالي : ليس في هذا ما يناقض ما قاله ، إذ ليس فيه إلا نفي وقوع الكسوف لموت أحد أو لحياته ، والأمر بالصلاة عنده . والشرع الذي يأمر بالصلاة عند الزوال والغروب والطلوع ، من أين يبعد منه أن يأمر بها عند الكسوف استحباباً ؟ .

فإن قيل : قد روي أنه قال في آخر الحديث : « ولكن الله إذا تجلى شيء خضع له » فيدل على أن الكسوف خضوع بسبب التجلي . قلنا : هذه الزيادة لم يصح نقلها ، فيجب تكذيب ناقلها ؛ وإنما الروي ما ذكرناه ، كيف ولو كان صحيحاً لكان تأويله أهون من مكابرة أمور قطعية ؟ أفكم من ظواهر أولت بالأدلة العقلية التي لا تنتهي في الوضوح إلى هذا الحد .

وأعظم ما يفرح به الملاحدة أن يصرح ناصر الشرع بأن هذا وأمثاله على خلاف الشرع ؛ فيسهل عليهم طريق إبطال الشرع ، إن كان شرطه أمثال ذلك !

وهذا لأن البحث في العالم عن كونه حادثاً أو قديماً ، ثم إذا ثبت حدوثه ، فسواء أكان كرة أم بسيطاً ، أم حديداً ، أم ممتناً ؛ وسواء أكانت السموات وما تحتها ثلاث عشرة طبقة ، أم قل ، أم كثر ، فنسبة النظر فيه إلى البحث الإلهي ، كنسبة النظر إلى طبقات البصلة وعددها ، وعدد حب الرمان ، فالقصد كونه من فعل الله تعالى حفظ كيفما كان !

إن مثل هذه العقلية الواعية ، هي العقلية التي تخدم الدين ، وتبسط ساحته ، وتدعو إليه ، وترغب فيه ، لا العقليات الجامدة التي تقف في سبيل كل علم ، وتمترض على كل نظر واجتهاد وتمنع من الأمور المحدثه ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة في النار . حتى حار كثير من المسلمين في تقبل ألوان المعارف التي لم يكن للسلف عهد بها ، خشية أن تكون من تلك البدع التي تعود صاحبها إلى غضب الله ، وإلقائه في جهنم وبئس القرار . وبهذا التردد وقف الركب بدل أن يتقدم ، وأحجم حيث يجب أن يتقدم . وزعم بعض الناقلين أن الدين نص^٣ يبنى الوقوف

عند حروفه ودلالات ألقاظه ؛ وما ليس في هذه النصوص فالإسلام منه براء ؛ وهو لنو يجمل بالمسلم أن يحاشاه إن أراد الحفاظ على عقيدته . وغفلوا عن أن صاحب الدين هو صاحب الدنيا ، وأنه واهب القول ، كما ألقى في القلوب الهدى ، وهداها إلى الإيمان ؛ وأنه أمر بالسي كما أمر بالنظر والبحث في ملكوته ، لتبين آياته للمتوسمين .

الباحثون عن الحقيقة :

وم السالكون سبل طلب الحق ؛ وإن شذ الحق عنهم فلا يبقى في درك الحقيقة مطمح ؛ إذ لا مطمح في الرجوع إلى التقليد بمد مفارقتة .

وقد بحث عنهم الفزالي في عصره فألقام أربع فرق :

- (١) المتكلمون : الذين يدعون أنهم أهل الرأي والنظر .
 - (٢) الباطنية : الذين يزعمون أنهم أصحاب التعليم ، والمخصوصون بالاعتباس من الإمام المعصوم -
 - (٣) الفلاسفة : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .
 - (٤) الصوفية : وهم الذين يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة والمكاشفة .
- وقد درس الفزالي مباحث هذه الفرق ، وأمعن في درس مناهجها في البحث .

الفزالي وعلم الكلام :

ابتدأ بعلم الكلام فحصله وعقله ، وطالع كتب المحققين من المتكلمين ، وعرف أن غايتهم حفظ عقيدة أهل السنة عن تشويش البدعيين . فقد أطلق الله ألسنتهم لنصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلبس أهل البدعة الحديثة على خلاف السنة الماثورة . وقامت طائفة منهم بما نديهم الله إليه ، فأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة ، والتنوير في وجه ما أحدث من البدعة .

ويرى الفزالي بأنه صادف علم الكلام وافياً بالغاية التي كان لها ، ولكنه على الرغم من ذلك لم يشف نفسه ولم يف بمقصوده ، لأنه لم ير الاستقلال كاملاً في مجوئه والتجرد في طلبه ، بل ألقى المتكلمين اعتمادوا في سبيل غايتهم على مقدمات نسلوها من خصومهم ، واضطروهم إلى التسليم بها التقليد ، أو إجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار ، ولأن أكثر خوضهم كان في استخراج مناقضات الخصوم ، وهذا قليل النفع في حق من لا يعلم سوى الضروريات بشيء أصلاً . ثم إنه لما نشأت صنعة الكلام وكثر الخوض فيه ، تشوق المتكلمون إلى محاولة الذب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور ، فحاضوا في البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها ، ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى ، ولم يكن من ذلك ما يعمى بالكلية ظلمات الخيرة في اختلافات الخلق .

ولذلك لم يجد الفزالي علم الكلام وافياً بمراده ، ولا شافياً لدائه . وإن كان لا ينكر أن هذا العلم قد شفى نفس غيره ووفى بمقصوده ، بل لا يشك في حصول ذلك لطائفة ، ولكنه حصول مشوب بالتقليد في بعض الأمور . والفزالي

يحكى بذلك حاله ولا ينكر على من استشفى به ، فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء ، وكَم من دواء ينتفع به مريض ، ويستضرّ به آخره
الغزالي والفلسفة :

وثقّ بعم الفلسفة ، درسه في سنتين ، ثم لم يزل يواظب على التفكير فيه بعد فمه قريباً من سنة ، بما ورده ويردّه ، ويتفقد غوائله وأغواره ، ويطلع على ما فيه من خداع وتليس ، وتحقيق وتخيل .
وقد رأى الفلاسفة أصنافاً ، ورأى علومهم أقساماً .

عرف منهم (الذهرين) الذين جعلوا الصانع المدبّر ، العالم للقادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، وبلا صانع . ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً .
وهؤلاء هم الزنادقة .

وعرف منهم (الطبيين) الذين أكثروا البحث عن عالم الطبيعة ، وعن مجائب الحيوان والنبات ، وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات ، فأروا فيها من مجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته ، ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم ، مطلع على غايات الأمور ومقاصدها ، إلا أنهم يرون لاعتدال المزاج تأثيراً عظيماً في قوام قوى الحيوان به ، فظنوا القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه ، وأنها تبطل ببطلانه ، وإذا اندم فلا يعقل إعادته ؛ فالتنفس يموت ولا تعود ، فجددوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار والحشر والنشر والقيامة والحساب ، ولم يبق عندهم لبطاعة ثواب ، ولا للمصيبة عقاب ، فأنهكوا في الشهوات انهماك الأنعام . وهؤلاء أيضاً زنادقة ، لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهؤلاء جعلوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله وصفاته .

وعرف منهم (الإلهيين) من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسططاليس الذي رتب لهم المنطق وهذب لهم العلوم ، وحرر مالم يكن محرراً من قبل ، وأنضج لهم ما كان نجاً من علومهم . وهؤلاء يحملتهم ردوا على الذهرين والطبيين وأوردوا في الكشف عن فضائهم ما أغنوا به غيرهم ، وكذلك ردّ بعضهم بمضا . ولهم شيعه من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا والقارابي .

أما العلوم التي خاض فيها أولئك الفلاسفة فقد حصل أقسامها ودرس مباحث كل منها ، وأعلن رأيه فيها ، وهي العلوم الرياضية والمنطقية والطبيعية والإلهية والسياسية والخلقية ، وتكلم عن آفاتهما وعما يتماق منها بالدين ، ومالا يتصل به أولاً يؤثر في العقيدة الوقوف عليه . فالرياضيات التي تتماق بعم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم ليس يتعلق شيء منها بالأمور الدينية فنياً وإثباتاً ، بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجادتها بعد فهمها ومعرفتها . ولكن تولدت منها آفتان :

الأولى : أن من ينظر فيها يتمجب من دقائقها ، ومن ظهور براهينها ، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة فيحسب أن جميع علومهم في الوضوح وفي وثاقة البرهان كهذا العلم ، ثم يكون قد سمع من كفرهم وتطليلهم وتهاونهم بالشرع ما تداولته الألسنة ، فيكفر بالتقليد المحض ؛ ويقول : لو كان الدين حقاً لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم

في هذا العلم . فإذا عرف بالتسامح كفرهم وجحدم استدلل على أن الحق هو الجهد والإنكار للدين ، وكم رأيت من يضل عن الدين بهذا القدر ؛ ولا مستند له سواء ؛ مع أن الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقا لكل صناعة .
والثانية : نشأت من صديق للإسلام جاهل ، ظن أن الدين ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم ، فأنكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها ، حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع ، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع لم يشك في برهان ، لكن اعتقد أن الإسلام مبنى على الجهل وإنكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حبا ، وللإسلام بغضا . ولقد عظم على الدين جنابة من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم ، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي أو الإثبات .
وبهذا الأسلوب عالج النزالي سائر أقسام علوم الفلاسفة ، وخلص من دراسته بأن علومهم غير وافية بكمال النرض ، وأن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفا للغطاء عن جميع المضلات .

النزالي ومذهب التعليم :

وعرف ما عند أولئك الذين يسون أنفسهم (التعليميين) الذين شاع بين الخلق تحذيرهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المصوم القائم بالحق ، وبحث عن مقالاتهم ، واطلع على ما في كتبهم ؛ وهناك عامل خارجي أعانه على هذا البحث ضمنية للباعث الأصلي من الباطن في طلب المعرفة ، وذلك هو ورود أمر جازم من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم ، فلم يسهه مدافسته .

وخلاصة رأي النزالي أنه لا حاصل عند هؤلاء ولا طائل لكلامهم ، ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل لما انتهت تلك البدعة مع ضعفها إلى هذه الدرجة . ولكن شدة التعصب دعت الذآيين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم في مقدمات كلامهم ، وإلى مجادلتهم في كل ما نطقوا به ، فجادواهم في دعواهم « الحاجة إلى التعليم والمعلم » ودعواهم أنه « لا يصلح كل معلم بل لا بد من إمام مصوم » وظهرت حججهم في إظهار الحاجة إلى التعليم والمعلم ، وضمف قول المنكرين في مقابلته ؛ فأغتر بذلك جماعة ، وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضمف مذهب المخالفين لهم ، ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق وجهله بطريقة ، بل للصواب الاعتراف بالحاجة إلى المعلم ، وأنه لا بد أن يكون المعلم مصوما . ولكن معلنا المصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم فإذا قالوا : هو ميت ! فنقول : فمعلمكم غائب .

فإذا قالوا : معلنا قد علم الدعوة وبثهم في البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل فنقول : ومعلنا قد علم الدعوة وبثهم في البلاد ، وأكل التعليم ، إذ قال الله تعالى : « أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا تضر غيبته !
ويورد بعد ذلك طائفة من مقالاتهم ، ويجهد في البرهان على إبطالها . ثم يقول : فهؤلاء أيضا جربناهم ، وسيرنا ظاهرا وباطنا ، فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام وضمفاء العقول ببيان الحاجة إلى المعلم ، ومجادلتهم في إنكار الحاجة إلى التعليم بكلام قوي مفعم ، حتى إذا ساعد على الحاجة إلى المعلم مساعد ، وقال هات طه ،

واقفنا من تعليمه ، وقف وقال : الآن سلمت لي هذا قاطبه ، وإنما غرضي هذا القدر فقط . إذ علم أنه لو زاد على ذلك لا تفصح ، ولعجز عن حل أدنى الإشكالات ، بل يجز عن فهمه ، فضلاً عن جوابه .
فلما خبرهم نفض اليد عنهم ، إذ لم يجد معهم شيئاً من الشفاء المنجي من ظلمات الآراء .

النزالي والصوفية :

ويبقى من طوائف الباحثين عن الحقيقة طائفة (الصوفية) ، وقد علم أن طريقهم إنما تم بلم وعمل ، وحاصل عملهم قطع عقبات النفس والتزهد عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخليّة القلب عن غير الله تعالى ، وتخليته بذكر الله .

يقول النزالي : وكان العلم أيسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل « قوت القلوب » لأبي طالب المكي رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبي ، والترفقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي ، قدس الله أرواحهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصد العملية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لي أن خواص خواصهم مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالدوق والحال وتبدل الصفات . . . وعلمت يقينا أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم قد حصلته ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالدوق والسلوك .

ولقد أثنى النزالي على الصوفية ثناء عظيماً ، وامتدح سيرتهم ، بعد أن عكف على دراستهم علماً وعملاً واقتداءً ، وتجرداً ومجاهدة نفس ، حتى انتهى إلى أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق .

بل إنه ليذهب إلى أنه لو جمع عقل المتقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

وبالجملة فإذا يقول القائلون في طريقة ، طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله ١٢

وهو على مذهبه في حرية البحث ، وفي حرب التقليد ؛ لا يقرم على كل شيء إقراراً مطلقاً ، بل إنه ليصف بالخطأ ما تذهب إليه بعض طوائفهم مما يجري على ألسنتهم ، ممن يقولون بالحلول ، ومن يقولون بالاتحاد ، ومن يدعون الوصول ؛ وغير ذلك مما بعده أثراً من آثار عدم القدرة عن الإفصاح عما يرون وما يشاهدون من آثار عظمة الله ، إلى درجة يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح (١) .